

رؤية الواقع وإشكالية المعرفة في رواية كتاب الأمير

مسالك أبواب الحديد: لواسيني الأعرج

الأستاذ: عبد الرزاق بن دحمان
كلية الآداب و اللغات
جامعة محمد خيضر - بسكرة (الجزائر)

Résume :

Cognitivement le roman arabe a bien dépassé la phase d'imitation ou on calque le réel esthétiquement. Le roman de nos jours est devenu un projet de modernité qui a pour objet l'univers et l'Homme à travers des reformulations narratives fondant une nouvelle connaissance à références multiples. Dans cet article, on essaye de prouver cette hypothèse en se basant sur un roman de Wassini Laaradj

ملخص:

من المؤكد معرفيا أن الرواية العربية تجاوزت مرحلة التقليد، فلم تعد جمعا وتمثيلا لمواصفات واقعية تعيد صياغة الواقع صياغة جالية، فقد تحولت الكتابة الروائية إلى مشروع حدائي يسائل الكون والإنسان عن طريق تشكيلات سردية تعيد تأسيس المعرفة وفق مرجعيات مختلفة، هذا ما تحاول هذه الدراسة إظهاره من خلال رواية " كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد " " للروائي الجزائري واسيني الأعرج."

منذ زمن غير بعيد والرواية العربية تبحث عن موقع لها ،وسط مدارات وتشكيلات معرفية قصد تجاوز صيغ المحاكاة والتوثيق الثقلي الذي سارت عليه الرواية الواقعية، حين كان الإنسان محوسا بجمب المغامرة، والذهاب إلى فضاءات تخيلية تنسيه عالمه البائس ، كما هو الحال مثلا في رواية(دون كيشوت دلمنشه)" للروائي الإسباني (سرفانتس) (1616 1547) ورواية "«البحث عن الزمن المفقود " للكاتب (ولتر سكوت) (1832 1771) وضمن هذه السياقات المعرفية نمت حركية الكتابة الروائية ، فتحول فعل الإبداع فيها إلى رؤية كونية تجمع في متنها مرجعيات معرفية قوامها الحراك السردى المكثف وما ينطوي عليه من أبعاد تخيلية ورموز وشخصيات وأحداث وتنويعات انزياحية، بهدف تكوين دلالات عقلية تثبت علاقة الإنسان بالذات والكون، ومن هذه السياقات، " فإن خيار الرواية العربية ليس خيارا شكليا بل هو خيار رؤية وطريقة نظر إلى الأشياء والعالم ... »" (1) .

وانطلاقا من هذه الرؤية التحليلية فإن الاشتغال على عناصر الرواية يعني بصورة موجزة إعادة ترتيب الوحدات السردية في العمل الروائي، من أجل تقديم رؤية شاملة للعالم ، فما ترجمه الرواية ليس نقل صورة العالم عبر مشاهد سردية، بل خلق مفاهيم ورؤى يمكن معايشتها على مستوى آخر من مستويات الواقع، وعليه فإن مقصدية الكتابة السردية لا ترتبط بالذات الكاتبة، أو بالأحرى "الروائي" كما هو مائل في الشعر، وكل الكتابات النثرية الأخرى هي كتابة تشكلها مرجعيات ذات انسجام وتوافق بين الكاتب والمتلقي، بمعنى أن الرواية تقول العالم بكيئونة خاصة، أو كما قال (بول ريكور): "« إن الحياة لا تفهم إلا من خلال القصص التي نرويها عنها "» (2) .

إن تطور الخريطة السردية بكل تشكيلاتها الجمالية، جعل الرواية العربية دائما البحث عن سياقات وتخوم مجازية تلامس بشكل أو بآخر مأساة الإنسان العربي وهزائمه أمام نفسه وأمام الآخر، وكيف حمل انكساراته المتوالية ،وهو يصارع واقعا مرا ، و حياة بأسفة حتى النخاع .

وأمام تعقد الوضع الإنساني اقتحمت الكتابة الروائية مغاور الوعي فاستخدمت تعابير وصيغ لتعرية شجرة الذات ، والكشف عن الغامض والمجهول ، ومداهمة فيوضات الدهشة ، فكل هذه العوالم بعثت في المتن الروائي شيئاً من مساءلة قيم المعرفة ، وهذا بوضع منطق الحياة محل جدل وسؤال ، ليكون " النص " حينها مساهماً في استحضار الصفة الإشكالية للعالم على حد تعبير (لوسيان غولدمان)* . (Lucien Goldman) .

- "كتاب الأمير: مسالك أبواب الحديد: "هي الرواية التي تحتل المرتبة الرابعة عشرة في مسيرة الروائي الجزائري (واسيني الأعرج)، وفيها اشتغل الكاتب على تقنيات سردية حديثة، منحت الشكل الروائي تميزه الجمالي والمعرفي، في صناعة متخيل سردي قادر على استثمار عناصر التراث والتاريخ والموروث الثقافي .

تناول هذا العمل الروائي مرحلة تاريخية من نضال (الأمير عبد القادر الجزائري) (1883/1808) وكفاحه ضد الاستعمار الفرنسي، وقد اشتغل الروائي على استحضار السيرة النضالية (للأمير) بدءاً بمقاومة ظلم الاستعمار، إلى مواجهة بني قومه ممن لم يعرف حقيقته ونواياه والمقصود هنا أتباع (محمد التيجاني) الذي قضى عليه (الأمير) عام 1839 م لتمر الرواية إلى أحداث (الأمير) وهو سجين في محبسه الفرنسي ونقله إلى قصر " أمبواز " مع أسرته وبعض من حاشيته، وخلال إقامته هذه يتعرف عليه رجل من رجال الدين الفرنسيين وهو: (مونسور ديوش) (Monseigneur Dupuche) الذي كان أسقف الجزائر سنة (1838 / 1845) فيزوره في معتقله، فيعجب بخصاله الطيبة ومواقفه المشرفة ، فيعقد معه لقاءات متكررة ، ولحبه للأمير يحاول جاهداً أن يسعى لدى السلطات الفرنسية إطلاق سراحه وفاءً للجهود التي قطعتها له فرنسا ، وعلى هذه الشاكلة تنمو حوارية النص عبر استخدامات سردية، فيدخل الروائي شخصية أخرى في تقديم المادة السردية وهي: شخصية (جون موبى) (z Mobie) خادم (ديوش) الذي لازمه مدة حياته، وهو الذي أسند إليه الكاتب مهمة السرد عبر أحداث الرواية، لتكون المادة التاريخية حاضرة على مستوى المتخيل، إذ تمثل الروائي الكتاب الذي ألفه (ديوش) " عبد القادر في قصر امبواز " والذي أهدها إلى رئيس فرنسا (لويس نابليون بونابارت):

«كان الليل في آخره عندما وجد نفسه غارقا في أدق التفاصيل التي لم يعرفها إلا جزئيا من قبل . عاد لينغمس من جديد في كومة الأوراق والصحف المتراكمة على الطاولة التي تحتل قسما كبيرا من الحجرة قرب قنديل الزيت منه قليلا ، فجأة قفزت بين يديه وثيقة صفراء كانت الحروف تركض مثل الخيول المتزاحمة . غمس القلم في الحبر الذي صارت ميوعته أفضل مما كانت عليه ثم تركه يشق البياضات في هذه الورقة.....» (3)

أراد الروائي أن ينقل إلينا الصورة الأخرى للأمير " عبد القادر الجزائري " الصورة التي لم يقلها التاريخ لتكون علامة على خصوصية حضارية وسلوكية تمتع بها هذا الرجل التاريخي من خلال مواقفه الإنسانية التي أبهرت العدو والصدوق ، ومن أجل تبليغ هذه الأفكار ابتعد الكاتب عن المسار التتابعي الخطية السرد ، إذ قسم عمله الروائي إلى ثلاثة أبواب كبرى: باب المحن الأولى ، "باب أقواس الحكمة" ، "باب المسالك والمهلك" ، وجعل لكل باب مدخلا ، هو "الأميرالية" ، وعدداً من "الوقفات" ، وبناء على هذا التصميم سارت الأحداث والمشاهد عبر تقاطعات زمنية لا تخضع لمنطق النظام ، فتارة تأخذنا الرواية إلى زمن متأخر من عمر (موسنينيور ديبوش) ، حين نقل جثمانه إلى الجزائر سنة 1864 ، وتارة تحدثنا عن مواقف الأمير عبد القادر وهو في معتقله وتحديثه مع الأسقف ، وهكذا هي المحطات التاريخية تتداخل فيما بينها ، عبر تنوعات أسلوبية معقدة يتشابك فيها الواقع بالخيال ، ويتعاقب فيها التاريخ بالتصورات والرؤى .

ومن هذا الطرح فنحن أمام عمل فكري يرمي بتأويلاته إلى ضفاف ومساحات معرفية تدعونا إلى شغل فراغات محممة من تاريخنا الوطني ، «إذ يتحول عرش النص في نظرنا إلى فلسفة تقودنا إلى التفكير في الذات والواقع والمجتمع والتاريخ والثقافة...» (4) .

- تأويل المرجع / متاهة المعنى: إذا كان العمل الأدبي يشكل تصورات خاصة للمؤلف ترجمها تداعيات التخيل الحر،(5) فإن فهم لغة الخطاب يستدعي علائق ومستويات

، تفكك المرجع بمفهومه العميق، وإن كانت هذه الرواية متداخلة المرجعيات، لاستغلالها على مدارات معرفية عميقة، وتجارب ذاتية يلعب فيها التناسل الدور الأكبر في استنطاق لغة النص .

يتحرك مرجع هذه الرواية ، من خلال الكتاب الذي ألفه (مونسيور ديوش) " عبد القادر في قصر أمبواز ". وهذا ما عبر عنه المشهد السردى:
يخط بريشته الأنيقة كلماته التي كانت تأتي من أعماقه ،
بعد أن أصبحت سيولة المداد أكثر لزوجة وسيولة ، (6)

في هذه اللحظة تتوحد مساحة الرؤية لبيد الراوي رحلته عبر التاريخ، فيندمج في زمن المغامرة، بحثا عن موطن للكتابة، فتستحضر هذه الصورة التاريخية، رغبة من الكاتب في تقديم قراءة أخرى لمسيرة "الأمير عبد القادر الجزائري"، وكأن هذا الاشتغال أراد تمرير خطاب تاريخي عن طريق معطيات معرفية يشترك فيها الملمح الغربي الذي ترسمه ثقافة هذا "الأسقف" الذي أحب ودافع عن "الأمير"، فهي الرغبة في الكشف عن مناطق أخرى تعيد للأمير وجهه المشرق، خلافا لما هو مختزن في ذاكرة الشعب الجزائري:

«البرد والصقيع و غشاوة الضباب التي تملأ الأمكنة

وساحة البيت دور مونسيور القلم بين يديه كعادته عندما تهرب منه العبارة ... وضع كفه على جبهته قليلا بحثا عن شيء ما لم يكن قادرا على تحديده فرأى الأمير طفلا يركض على حافة وادي الحمام وهو يقطع البحار والقفار مع والده باتجاه القيام بمناسك الحج وزيارة علماء القاهرة والتوقف في مقام سيدي عبد القادر الجليلاني ببغداد ودمشق والبقاء قليلا بمقام ابن عربي ... ؟ » (7) .

إن هذا الطرح السردى يحمل تحويلا ثقافيا مغايرا للسائد والمألوف، كون الروائي لم يتعامل مع المادة التاريخية تعاملًا توثيقيا يتيح لنا أن نفهم سيرة "الأمير" على نحو ميسر، بل تعامل مع متخيل قوامه كتلة الأحاسيس المتفاعلة مع الواقع والتاريخ ، فجاءت الطريقة السردية أشبه « بمتاهة القص التخيلي الذي يأخذ القارئ من رواق إلى آخر داعيا إياه

إلى الإسهام في بناء العالم الممثل وعدم الاقتصار على تلقيه واستهلاكه.. « (8)، ولاشك أن تعدد القصص أدخل رؤية الكاتب في مناهات من لعبة المعنى، على طريقة " ألف ليلة وليلة"، وهذا قصد تفعيل أولوية التخيل ليكون مرجعا قبل خطاب المرجع الخارجي، تقول الرواية :

« هذه الأرض لم تعد في حاجة لأي أحد
لا يعرفون أن الدنيا تغيرت وأتينا على حافة عالم
في طريقه إلى الزوال وعالم يطل بخشونة برأسه
لا خيار لنا إلا أن نفهمه ونسجم مع ظروفه ، أو
نظل نغني ولا أحد يسمع أصواتنا إلا الذين نريهم الهزائم انتصارات
دائمة (9) .

إن هذا التصوير يتجاوز منظومة الماضي، ليلامس الراهن أو الحاضر الذي فقد الكثير من التصورات الموضوعية للتاريخ، فالواقع الثقافي للإنسان ألزمه تبني موقف عدائي للآخر (الغرب) وهو موقف فيه الكثير من المغالطات والإجحاف في حق الإنسانية، ولهذا تحول "الأمير" إلى رمز إنساني يملك شؤون الحوار، تمثلت فيه صورة " المثقف الذي عاش عصر تحول في القيم، وأراد أن يجد لبني قومه موقعا مشرفا فيه .." (10) :

« لو يفتح قلب البشر قليلا نحو النور ، أتمنى

أن يوضع قبرانا جنبا إلى جنب ... قد يبدو

ما أقوله لك مجرد حلم ، وربما احتجنا إلى

زمن آخر أقل حقا ولكن هذا ما أحس به الآن (11)

إن المعنى الجوهرى لمثل هذه السياقات السردية، يتجاوز حدود اللغة والأفكار، إذ ليس المراد هنا تثبيت جانب مهم من سيرة "الأمير عبد القادر الجزائري"، فهذا أمر تقوله كتب السير والتاريخ، بل المعنى المؤكد في هذا المقام هو فهم الوضعية الإشكالية للروائي، كونه كائنا إشكاليا(12) يتغذى من كتلة الأحاسيس والمشاعر القارئة للكون والإنسان، وهذا ما يجعل "المعنى" مدارا هلاميا يصعب مسكه ، وبخاصة إذا تورط

القارئ مع متاهات السرد وأطياف الخيال، فيجد المتتبع لهذا المتن الروائي نفسه موزعا بين حقيقتين: حقيقة الخطاب التاريخي المرتسم في الذاكرة الجماعية، ونعني هنا (تاريخ وسيرة الأمير عبد القادر) وخطاب الذات المتصدي لكل أشكال التبعية الفكرية والهجيمة الإيديولوجية، وهذا ما أكده الأستاذ الباحث (أحمد يوسف) * في نظره لتشكلات السرد والإيديولوجية في هذه الرواية، إذ خصص، إلى أن (ديوش) نفسه بشكل مؤشرا إيديولوجيا يناهض الفكر الاستعماري وهذا من خلال دفاعه عن الأمير، فكل منهما يحمل فضاء روحيا ومعرفيا يدل على قناعات معرفية مطلقة، ومن هنا تتموقع رؤية الرواية، وتتنضح معالمها البعيدة، والمتمثلة في خرق حجب التاريخ والرغبة في تجاوز السائد، وأن الحقيقة مستعصية متأبئة لا يدركها المرء إلا بعد الحفر في طبقات المعرفة، وما ذهب الروائي إلى التاريخ إلا مظهر أساسي من مظاهر بؤس الحاضر، وخواء الذات وغربتها . إذن نقول : إن حوارية الرواية ودخولها متاهات تاريخية جعلت متعة السرد فيها تستحضر محطات جد هامة من جماليات التاريخ، المنسجم مع مرجعيات الواقع والمتخيل، فالرواية من هذا المنحى بددت التمثيل الأحادي للتاريخ، فجعلت للحدث التاريخي مساحات إنسانية تنسجم ومعاني النبيل والتضحية، من منطلق أن الإنسان لا يكتمل عمقه إلا بوجود الآخر:

" روحك أنت غالية علي ، ومستعد

أن أمنح دمي لإنقاذها امنحني

من وقتك قليلا لأتعرف على دينك

وأذا اقتنعت به ،سرت نحوه اندهش مونسينيور من كلام الأمير

فقد شعر كأن شيئاً كان يعتمل في داخله (13)

حافات التاريخ / إشكالية المعرفة: في هذا العمل الروائي يبدو الاشتغال على التاريخ أمرا صارما، إذا ما نظرنا إلى الطريقة العلمية التي صاغ بها الروائي رؤيته ومنهجه السردية في تناول الأحداث والمواقف التاريخية، ذلك أن الرواية "بمرجعياتها المتعددة واللاشعورية والواقعية تخضع في تكوينها واشتغالها لأطر الإدراك، ولأنماط المتخيل بمختلف تشعباته(14) وهذا ما يوظف عناصر الأسلوب بتنويعات لغوية ومفارقاة انزياحية، جعلت الروائي يعتمد

في عمله هذا على ثلاثة رواة ، بثلاث روايات متداخلة: الراوي الأول يتمثل في الكاتب، وهو الراوي العليم الذي يروي قصة (جون مويي) خادم القس والأب (ديبوش)، والذي عزم على تنفيذ وصية سيده، بأن يدفن في الأرض التي أحبها (الجزائر):

" وأن تزرع تربتي في البحر فجرا، فقد غادرت

تلك البلاد في حالة جوع منها وأنت تعرف جوع

الحب، لا يشفيه إلا الموت أو اللقاء المستحيل " (15)

والراوي الثاني هو (جون مويي) وعن طريقه نتعرف على لقاء (القس) (بالأمير) وما دار بينهما من حديث متشعب، أما الراوي الثالث فيتمثل في القس (ديبوش) والذي يروي قصة الأمير وسيرته في النضال ضد الاستعمار ومواجهته لبني قومه ..

نلاحظ من خلال هذا التقسيم الإستراتيجي للرواية، أن الروائي عمد إلى تكسير الاتجاه المنتظم للسرد فجاء الزمن دائريا متشعبا، لا نشعر فيه بثقل المادة التاريخية، على نحو ما نقرأ في الروايات ذات القيمة التاريخية، (كرواية التاريخ، على سبيل الذكر...)، وتأكيدا لهذه المواصفات يأخذ هذا المشروع الروائي بعدا وطرحا آخر بعيدا كل البعد عن فكرة "إعادة قراءة سيرة الأمير عبد القادر الجزائري" ضمن ضوابط التاريخ والمرجع الوثيقي العام، أو كما قال الكاتب نفسه في الأوراق الأولى من الرواية: " التاريخ ليس هاجسا " فما الهدف المقصود، إذن من وراء هذا النسيج الروائي؟؟؟ ... فليكن تفكيك العنوان، هو بمثابة العتبة الأولى والمدخل الدال على كثير من التأويلات والإيحاءات، ف"كتاب الأمير" صياغة تعبيرية تعكس المضمون الداتي للكاتب كونه يمتلك موقعا خاصا في تقديم " الأمير" تقدما مميذا يخرج من سكونية التاريخ، إلى فضاء القراءة الأخرى المتسلحة بالمشاعر الجمالية والرؤى العميقة، لأن دلالة (كتاب) لها وقع خاص على القارئ الحصيف، الذي يدرك - على التو - أنه أمام وضعية معرفية يمتلكها المؤلف تستحق وعن جدارة أن تحترق حجبها، فتزداد أشواقه لوعة لمعرفة خبايا هذا الكتاب، وهذا بدوره يؤكد الميزة المتعالية للمؤلف (بالكسر)، المتفرد، بوصفه ذاتا، قادرة على ضخ المعنى، في المقولات التاريخية الماضية، وإعادة تركيب التصور التاريخي للفرد والمجتمع، قصد تمثيل الحقيقة من وجهة نظر

مغايرة تماما للمألوف والمكرس، وهذا قصد "إزاحة النقاب عن ذلك الجانب المستتر في حياة تلك الشخصيات بحيث يمكن القارئ من فهم الناس في الرواية (16) وتزداد معالم العنوان وضوحا، إذا استوعبنا جيدا العنوان الفرعي: "مسالك أبواب الحديد" فنفهم منه وضعية الأمير وهو سجين السلطات الفرنسية، وفي نفس الوقت نستوعب الدلالة الأخرى لكلمة "مسالك" التي توحي بتشعب وتعقد الحقيقة التاريخية المحاطة بالأمير، وهي نفسها مسالك السرد المتنوعة، والتي أريكت كاهل السارد، فجعلت رؤية الأمير تتجاوز السجن المادي، إلى سجن المعرفة، سجن العرفان والمقامات الروحية، وبفضل هذا السمو يتحول هذا السجن إلى محطة وجدانية ذات أحوال باطنية، رسمت للأمير انطلاقة جديدة تمثلت أساسا في حوار الشيق مع الأسقف (ديوش)، ومن هذا المنحى الدلالي للعنوان نفهم أيضا بعضا من التلميحات السيميائية المشتغلة على العنوان، فداخل المتن السردى اتصف الأمير بالسكون فلم يعهد له الكاتب مهمة الحكيم فقد جعله السارد شخصية مفعولا بها بدل أن تكون فاعلة، وهذا ما لا نعرفه عن "الأمير عبد القادر" مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة وهذه الخاصية تقابل الشق الأول من عنوان الرواية، ليأتي الشق الثاني وفيه تتصف الأحوال السردية بالتنوع والثراء، وهذا بدوره يجعل شخصية الراوي (ديوش) ذات مكانة فاعلة في تفعيل حركة السرد النابعة هي الأخرى من وضعية الاجتماعية التي يوجد عليها الروائي لحظة دخوله زمن الكتابة، أو زمن المغامرة، وهنا تنسجم الرؤية السيميائية مع دلالة كلمتي (كتاب) و (مسالك) لتدلا على ثنائية الصراع بين "الأنا" و"الأخر"، ولعل هذه القراءة النسبية توضح مدى عمق وتشعب الظروف التاريخية التي صاحبت هذه الشخصية الوطنية فليست السيرة هي المقصودة في هذا المقام السردى، بل المقصود استدعاء وضعيات تاريخية متأزمة، قصد فهم الراهن الثقافي الذي نعيشه بشيء من الحسرة والألم.

فالرواية من هذا المنظور، لا يمكن، بأي حال من الأحوال فصلها عن مجموع السياقات التاريخية، كونها استلهمت الخطاب التاريخي، فوجدت فيه متخيلا سرديا قادرا على حمل أزمات العصر، وقضاياه المصيرية، فعن طريق التاريخ نفهم جيدا المعنى أو الرسالة

المراد تبليغها من وراء هذا التشكيل السردي، فذهاب الرواية إلى التاريخ يضعنا ضمن تصورات جد حيوية تحيلنا مباشرة على حاضر وواقع مر، ووضع مريك، يعاني فيه الإنسان من كسوف معرفي وتشويش على مستوى الذاكرة والفكر، إذ يتحول الماضي إلى كينونة خاصة تحركها معرفة الحاضر، الذي هو نتاج ما مضى، وفهم التاريخ أمر مستحيل على المرء ما لم يحدد صلته بالحاضر..(18) ضمن هذا الخطاب الروائي تتجلى الإمكانيات السردية الواصفة للواقع والراهن، ليكون(الأمير عبد القادر) معطى تراثيا وخطابا معرفيا موسعا يرحل إليه الراهن المتعثر والمأزوم يرى فيه الكاتب الصورة المثلى للإنسان الكامل، الباحث عن الجوهر الفرد، الواصف بالعبارة والشاهد على عمق الإشارة، .. هي إذن محطات أخلاقية يرى الروائي من خلالها واقعا كئيبا تنعدم فيه معاني التسامح والنبيل:

" كما نظن أننا الوحيدون الذين ينظر الله

إلى وجوههم يوم القيامة، وأن الجنة حكر

لنا وأن الله ملك للمسلم، وكلما تعلق الأمر

بالآخرين، أنزلنا عليهم السخط والمظالم....، عندما

كان الناس يحفرون الأرض ويستخرجون التربة

ويحولونها إلى قطارات بخارية وسفن حرية،

وسيارات، وقوانين تسير البلاد كما نحن غارقين

في اليقينيّات، التي ظهر لنا فيما بعد ضعفها، وأنا كما

نعيش عصرًا .. انسحب وانتهى " (19)

فمضمون هذا الخطاب يعكس في دلالاته العميقة، وضعا سوسولوجيا معقدا لم يصل فيه الفرد بعد إلى استيعاب الآخر، وإدراجه "ذاتا" يمكن لها أن تكون مفتاحا لفهم العالم والإنسان، وبهذا المنظور يتجاوز السرد لحظة التوثيق التاريخي لتتحول اللغة الحوارية إلى مجموع كلي من الدلالات والإيحاءات، نثر عبر أطيافها على مساحات مرجعية تؤكد قلق الذات الكاتبة ومحتتها من وراء التاريخ، من وراء نص الحيرة ..

"لم أرك ولكن من رسائلك عرفت أنني أمام رجل كبير

لم يفهمه الفرنسيون والعرب معا، البارحة قضيت
 الليلة بكاملها أعصر دماغني ووثائقي عبثا ولم أجد جوابا
 مقنعا لقصة النسخة الخفية من معاهدة دوميشال (20)

إنها الحالة الوجدانية التي غالبها التشظي والضياغ الزمني، فلا تجد غير هذا السامق الواقف خلف التاريخ، والقابع بأشجان المعرفة والروح، والذاهب إلى أدراج الغيب والمستحيل، لتتربع حكاية "الأمير" على فيوضات مأساوية تسترجعها الرواية كذاكرة حزينة، تلملم بقايا الذات وتصدعها أمام مبنى التاريخ، فلا ضير إذن في أن تتحول هذه المغامرة السردية إلى غربة الذات الكاتبة الباحثة عن اليقين خارج منظومة الواقع، فتحضر تجليات "الأمير عبد القادر بن محي الدين) ويحضر (ابن خلدون)، و(التوحيدي)، و(ابن عربي)، لتشكل هذه المنعطفات المعرفية مرجعا تراثيا يحتزل في أعطافه، منظومة "الإيمان التي أراد الكاتب توطيدها بصورة مغايرة تختلف تمام الاختلاف عن صورة الإيمان السطحي والزائف، والمكرس في زمن الكاتب:

كنت أريده مسيحيا يخدم رسالة المسيح العالية
 وكنت مستعدا لأرحل بصحبته إلى البابا لتعميده
 يصير واحدا منا .. ولكنه كان أقوى من أن يكون
 جل دين واحد ، فقد كان مسلما في قلب كل المعارك
 الكبرى لمصلحة الإنسان (21)

إن اشتغال السرد على محاور التاريخ، يجعل الرواية أكثر مرونة في توظيف الأحداث والمواقف والسلوكات البشرية، بل أكثر جرأة من المؤرخ، يقول الروائي (واسيني الأعرج) في بعض من تصريحاته: "... إذا كان التاريخ لا يملك ربما جرأة هذه الرؤية بحكم ضوابطه المنهجية، فأعتقد أن الرواية كمجال للحرية القصوى ... تستطيع أن تتأمل هذه الظاهرة وأن تحفر فيها بشكل عميق " (22) .

والسؤال المؤكد في هذا السياق : هل يمكن أن تكون رواية (كتاب الأمير :مسالك أبواب الحديد) بديلا عن التاريخ ؟؟؟ .

من العسير جدا وضع تصنيف خاص لهذه الرواية، انطلاقا من مناهات التأويل وتحولات السرد، ومن الصعب أيضا القبض على أطراف المعرفة المندسة خلف المرجعيات والأفكار وانزياحات المعاني، وتشعبات التناص، وصراع الخطابات، كون هذا العمل الروائي تتداخل فيه هواجس التاريخ، المتناغم وتخوم الكتابة الروائية ..

اتبع الروائي استراتيجية سردية صارمة، كان حريصا فيها على ضبط المادة التاريخية، حتى لا يجيد عن معقولية ومنطق الموضوعية التاريخية، ثم تدرج في معايشة قصة (الأمير عبد القادر) معايشة وجدانية، نقلته عبر تخييل توسعي إلى رؤية سردية متفحصة لأحوال العصر والواقع، إذ تموقع إيديولوجية القيم كمرجع معرفي، أسس خطابا ثقافيا، غير قادر على احتواء الآخر والتواصل معه ، بكيفية تتناغم فيها القيم الإنسانية والروحية، وهذه هي الرسالة الحضارية التي أراد الكاتب تبليغها من وراء هذا المشروع السردى:

ليس أهم من وجهك وقلبك الطيب

قل للأمير بأني أحفظ له هذا الخير

ما دمت حيا . وأتمنى أن يمنحني الله مزيدا

من القوة لإشاعة المحبة بين الناس (23)

إن افتتاح السرد على هذه الرؤية الواقعية جعل مواصفات الحوار الذي دار بين (الأمير عبد القادر) والقس (مونسينيور)، يأخذ بعدا حضاريا نستخلص منه مثلا حيا في تحاور الأديان والثقافات، ولا سيما في زمن طغت عليه الدغائية والتعصب الديني بين الشعوب، وهذا ما جسده السياقات اللغوية والأسلوبية المشككة عبر جسد النص الذي تعايشت فيه الخطابات واللغات، والنصوص ، :

" تعرف يا جون، كلما صعدت إلى هذا

الجلبل شعرت بسعادة غامرة. من هنا خرج

الرجل الذي دوخ الدنيا بحكمته وكرمه. وسعيد

أني كنت قليلا وراء فرج كربته تعرف ما معنى
المنفي؟ ما معنى أن يفقد الإنسان أرضاً أحبها
لا بد أنك تعرف ذلك، تراجيديا الأمير ليست
الهزيمة، في الهزيمة يمكننا أن نقبل الآخر
ويكفيه فخراً أنه قاوم قرابة العشرين سنة " (24)

إن مثل هذه المواقف بإمكانها صناعة متخيل معرفي، يستدرجنا إلى فهم "خبية التاريخ الذي ارتبط بالمركزية السلطوية ولم ينصف الأبطال الحقيقيين" (25)، فلم تعد قصة (الأمير) مقصداً فكرياً ضمن أطروحات السرد، أو تمريراً لخطابات سياسية واجتماعية، إنها فضاء مفتوح لقراءة الذات المنكسرة من وراء انحرافات التاريخ وانزلاقاته . ولما كان التاريخ عاجزاً عن الإلمام ببعض الأسرار والخفايا، فإن الأخبار تستعين بروح القصة لتفتح المجال للمجاهل بلا تهيب. فإذا عجز التاريخ عن اكتشاف واثق أو شواهد لأصل الحياة وانجاس الوجود، ففي الخيال فسحة لتصوير ذلك من خلال سياحة فنية مصاوبة، للتاريخ تجيب عن أسئلة يعجز هو عن طرحها .." (26)، فما استحضره الروائي من إمكانات سردية هو في حقيقة الأمر رفض للواقع السائد، عن طريق إعادة تشكيل معطيات معرفية أخرى، تكشف عن جوهر الصراع داخل المجتمع البشري، فصورة (الأمير) وهو يحاور القس (ديوش) تعكس في أبعادها قيمة العنصر الروحي والوجداني، في تجاوز المحن، فليس المهم في هذا المقام أن يبحث أحدهما عن السند الروحي، بقدر رغبة الكاتب الباحثة عن اليقين الديني والروحي من وراء هذا الحوار، إذ جعلنا الراوي نقرأ حقيقة (الأمير) من خلال صورة القس، ونقرأ أيضاً صورة القس من خلال شخصية (الأمير) وهكذا تتفاعل المشاهد السردية، من وراء هذا اللقاء التاريخي الذي لم يستطع التاريخ إظهاره ولا حمله على وجه الحقيقة والتمثيل، تقول الرواية:

" الجمال خلقه الله للرجال والنساء

وديننا ودينكم لم يعمل إلا على

تهذيب العلاقات بدون إقصائها. هل

هذا يكفي أم أضيف شيئاً آخر
شكراً يا سيدي ، يكفي لهذا اليوم. كلامك
طيب ومقتنع (27)

فالتلويح السردية المختفي وراء عنصر السيرة، نراه ينازع إشكالات الرواية المناهضة للتوثيق والإخبار المباشر، قصد تشييد وبناء الواقع الموضوعي الذي يحلم به هذا المتن الروائي، وبهذه الرؤية، فإن دمج المستوى الأسلوبي ضمن آفاق الرؤية السردية، هو ما يمكننا من فهم واستيعاب هموم ومعاناة البطل على مستوى السرد، ومعاناة (الأنا) الكاتبة على مستوى الواقع، وهذا يعني تعالي مقصدية الكاتب في تمرير خطاب "حوار الثقافات" وترسيخ رسالة "القراءة الحداثية للتاريخ" ولن يكون هذا إلا بفهم الآخر، وجعله منطلقاً لفهم أنفسنا .

الهوامش والمراجع

- 1 فحزي صالح: في الرواية العربية الجديدة ، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2009 ، ط 1 ص 15.
- 2 ديفيد وورد : الوجود و الزمان والسرد : فلسفة بول ريكور ، ترجمة وتقديم سعيد الغانمي ، المركز الثقافي العربي ، 1999 ط 1 ص 32 .
- * ينظر : Lucien Goldmann : pour une sociologie du roman, editions Gallimard(idées) 1964 Paris p : 33/34
- 3 واسيني الأعرج : كتاب الأمير ،مسالك أبواب الحديد ، دار الآداب ، بيروت ، لبنان 2005 ص 252.
- 4 أحمد يوسف : تضايق السرد والإيديولوجيا ، أعمال الملتقى الخامس للنقد الأدبي في الجزائر ، قسم اللغة العربية وآدابها ، 16/15 أفريل ، 2008 ص 257
- 5 رومان انجاردن : العمل الفني الأدبي ، ترجمة أبو العيد دودو، منشورات مختبر الترجمة والمصطلح ، 2008 جامعة الجزائر ، ص 53.
- 6 واسيني الأعرج : كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد ص 253.
- 7 واسيني الأعرج : كتب الأمير مسالك أبواب الحديد ، ص 62.
- 8 محمد القاضي : الرواية والتاريخ ، دراسات في تخييل المرجعي ، دار المعرفة للنشر تونس 2008 ط 1 ، ص 152.
- 9 واسيني الأعرج : كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد ، ص 223 / 224
- 10 محمد القاضي : الرواية والتاريخ: ص 156.
- 11 واسيني الأعرج : كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد ، ص 245 / 246.

- Lucien Goldmann pour une sociologie du roman editions 12
Paris p 56 Gallimard 1964
- * ينظر: ينظر: أحمد يوسف : تضايق السرد، والإيديولوجيا، أعمال ملتقى المركز الجامعي
سعيدة 16/51 أبريل 2008، الأدبي والإيديولوجي في رواية التسعينيات ص 240. (
- 13 واسيني الأعرج : كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد ص 51..
- 14 أحمد البيوري : في الرواية العربية التكون والاشتغال ، شركة النشر والتوزيع ،الدار
البيضاء ، المغرب ، 2000 ، ط 1، ص 34.
- 15 واسيني الأعرج :كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد ، ص 616.
- 16 سعيد يقطين : الرواية والتراث السردي ، القاهرة ، 2006 ط 1 ص 169.
- 17 نضال الشالي : الرواية والتاريخ ، بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية
العربية ،عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط 1 2006 ص 131.
- 18 ينظر هذه الفكرة : في: Georges Lukacs le roman historique editions
Payot Paris 1965
- 19 واسيني الأعرج : كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد ، ص 591.
- 20 الرواية : ص 148.
- 21 الرواية : ص 615.
- 22 ندوة : الرواية والتاريخ ، الدوحة ، قطر 2005 (حوار مع الكاتب واسيني الأعرج).
- 23 واسيني الأعرج : كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد ، ص 57.
- 24 الرواية : ص 615.
- 25 حسين خمري : فضاء المتخيل ، مقاربات في الرواية ، منشورات الاختلاف ،
2002، ط 1، ص 149.

26 عبد السلام أقامون : الرواية والتاريخ ، اطروحة دكتوراه جامعة محمد الخامس، الرباط ، شعبة اللغة العربية، 2001 /2000 إشراف : أحمد اليبوري ، محمد مفتاح ، ص 73.

27 واسيني الأعرج : كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد ، ص 501.